ابـــن بـــاديس

(١٣٠٧-١٣٥٩هـ=١٨٨٩-١٩٤٠م)

الأب الروحي
لثوار الجزائر

obeikandl.com

لسبب ما في نفوس بعض الحكام، ونفاقا لذوي السلطان، أهمل كُتاب التاريخ المحدثين دور الدين الإسلامي وجهاد علماء الدين في حركات التحرر العربية في العصر الحديث. فقد كان الدين هو المحرك الأساسي والباعث على الصمود في وجه المستعمرين، وكان هو الطاقة التي لا تنفد والتي استمد منها أهالي البلاد المحتلة المدد لمواصلة الجهاد حتى تحررت بلادهم.

سجلات التاريخ المنصف التي لم تُزيف تؤكد ذلك بجلاء ووضوح،سواء في مصر أو الجزائر،أو في تونس وغيرها من الأوطان التي اصطلت بنيران الاحتلال. فلا يمكن لمحلل منصف أن يُنكر دور جبهة علماء الجزائر في الجهاد وإعداد النفوس للثورة،وبناء جيش من الإسلاميين كان في طليعة الثوار الذين أجبروا الاحتلال الفرنسي على الرحيل.

ومن علماء الدين الجزائريين،الذي يمكن بحق اعتباره الأب الروحي لثوار الجزائر، والذي أوقد شعلة الحرية وظل حارسا لها حتي اليوم الأخير من عمره، والتي حملها «من بعده تلاميذه الذين غرس فيهم روح الجهاد والدفاع عن الدين والوطن». «الشيخ عبدالحميد بن باديس».

نشأة دينية:

ولد عبدالحميد بمدينة قسنطينة في ١١ ربيع الآخر سنة ١٣٠٧هـ، ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٩م. لأسرة اشتهرت بمكانتها العلمية والأدبية. نشأ نشأة دينية نيرة،درس علوم اللغة العربية والإسلام علي أيدي أناس يفهمون الشريعة فهماً صافياً،ثم رحل إلى جامعة الزيتونة (١٩٠٨م) وهو في التاسعة عشرة من عمره فأكمل دراسته الدينية بتونس على يد كثيرين في مقدمتهم «الشيخ محمد النخلي» و«الشيخ طاهر بن عاشور»

وبعد أربع سنوات من الدراسة بالزيتونة، سافر إلى الحجاز ١٩١٢م، وهناك التقى «بالشيخ حمدان الونيس» الذي درس على يديه بالجزائر والذي أخذ على «ابن

باديس» عهداً ألا يعمل موظفاً بالحكومة الاستعمارية في يوم من الأيام. كما تتلمذ على الشيخ «أحمد الهندي» الذي نصحه بعد تحصيل العلم أن يعود إلى وطنه والاجتهاد في خدمة العروبة والإسلام.

بعث إسلامي:

وقبل أن يعود إلى الجزائر، وهو في المدينة المنورة تدارس مع رفيق جهاده « لشيخ البشير الإبراهيمي» خطة النضال لبعث الإسلام من جديد في الجزائر، وإعداد النفوس للثورة وبناء كتائب الشباب المسلم وتجهيزهم ليوم التحرير،واتفقا على ضرورة تربية جيل من العلماء والمثقفين ينهض بمهمة إعادة الجزائر إلى العروبة والإسلام والقومية، جيل يمتلك فكرة صحيحة عن الدين ولو مع علم قليل، وتوفير كتائب معدة لمهمة محددة، هي مهمة وضع الوطن الجزائري على طريق الاستقلال، وتسليمه لجيل جديد يواصل رحلة النضال بالسلاح.

وكانت هذه الخطة هي الرد الواجب والضروري لمواجهة إجراءات الاحتلال الفرنسي التي هدفت إلى فرنسة الجزائر، ومطاردة اللغة العربية والإسلام بأقصى صور الإبادة والتشريد والسحق والاستئصال، فقد أقدمت قوات الاحتلال على هدم المساجد وإغلاق المدارس والكتاتيب في غلظة وحشية،وحاربت القضاء الشرعي محاربة ضارية حاقدة. ووضعت سلطات الاحتلال مجموعة من القوانين الجائرة لإبادة اللغة العربية، إذ أعلنت فرنسا: أن اللغة الفرنسية هي لغة الدولة الرسمية، وأصدرت قوانين صارمة تُحرم أن يقوم أي مسلم بإدارة مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بتصريح من قائد المنطقة، فإذا اتجه عربي غيور إلى المطالبة بهذا التصريح أُعتقل أو أُعدم، ثم فتحت المدارس الفرنسية، وكانت المناهج التعليمية لا تعتبر اللغة العربية مادة تستأهل الدراسة، وكذلك الدين الإسلامي، ولكنها تركز اهتمامها بتاريخ فرنسا القديم والحديث، والتغني بالحرية والحضارة الفرنسية المزعومة.

برنامج تعليمي:

وحتي يقاوم ويواجه هذه الهجمة الشرسة على الإسلام ولغة القرآن، نهض «ابن باديس» بعد عودته إلى الجزائر بتنفيذ برنامج تعليمي وتثقيفي وإصلاحي كبير استمر ثمانية عشر عاماً في إعداد العدة وتكوين النواة التي تبلورت في قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٤٩هـ ٥مايو سنة ١٩٣١م. التي نضج تيارها الفكري وولد هيكلها التنظيمي من خلال لقاءات المثقفين الجزائريين، في نادي الترقي بالعاصمة الجزائر، بعد مؤتمر حضره علماء الجزائر وفقهاؤها، دام أربعة أيام، وانتخب «ابن باديس» -في غيابه- رئيساً لها.

طوال هذه السنوات التي سبقت قيام جبهة العلماء، كان «ابن باديس» يُلقي بقسنطينة دروسه في مسجد سيدي قموش وفي الجامع الكبير، وعندما منعته الحكومة الفرنسية ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م من التدريس في الجامع الكبير،تحول إلى التدريس في الجامع الأخضر. وكانت دروسه تبدأ في مسجد سيدي قموش بعد صلاة الفجر، ثم يقضي النهار في تعليم أطفال المدينة القرآن والعربية والدين.

وفي المساء تبدأ دروسه للكبار والكهول في الجامع الكبير أو الجامع الأخضر، وكثيرا ما كان يسافر بعد الفراغ من دروسه الليلية إلى الجزائر العاصمة ووهران وتلمسان.

ومن سنة ١٣٣١هـ - ١٩١٣م حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦هـ - ١٩١٨م،كانت قد تكونت من حوله مجموعة من التلامذة والمريدين والأنصار بلغت الألف عددا، كل ذلك بالتعليم واللقاء المباشر، فقد كان بحق مصنع لصناعة الرجال.

استغلال الطرق الصوفية:

وكما حارب الفرنسيون عروبة الجزائر وذاتيتها القومية بواسطة إشاعة الجهل والأمية بين الأغلبية الساحقة من الشعب، وبواسطة فرنسة التعليم للقلة القليلةمن

الجزائريين الذين أتيحت لهم فرص الالتحاق بمدارسهم، فإنهم قد شنوا هجومهم على الإسلام عندما رأوه لحنا يميز المواطن الجزائري، ووشيجة تربطه بالعروبة والعالم العربي، وتشده بعيداً عن فرنسا والفرنسيين.

ولم يعتمد الفرنسيون في حربهم للإسلام بالجزائر على المبشرين فقط، ولا على إطلاق العنان لجماعات التبشير في المناطق الجنوبية وإغلاقها أمام جمعية العلماء فحسب، وإنما اعتمدوا أيضا على رجال الطرق الصوفية -(الطرقية)- ومكنوا لهم من إحكام القبضة على القلوب وشل عقول أغلبية الشعب بالشعوذة والخرافات،وشل إرادتهم وفعاليتهم بالتواكل والاستسلام. ولذلك بدأ «ابن باديس» حملته العلنية ضد الطرق الصوفية سنة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م. ذلك المسخ المشوه للإسلام وتعاليم الدين الحنيف.

فقد وضع رجال هذه الطرق أنفسهم في خدمة المستعمر،وأصبحوا أدواته التي يعتمد عليها في تخدير الجماهير،وصوروا للناس ما أنزل الفرنسيون بالبلاد من خراب على أنه إرادة الله سبحانه،ودعوا من أجل ذلك للاندماج في فرنسا امتثالا لإرادة الله. أعلن «ابن باديس» الحرب ضد هذه الطائفة الضالة التي فرت إلى حمى المستعمر والتي نسبت إلى الله زورا وبهتانا،والله بريء مما يفترونه عليه.

وقد نجحت جمعية العلماء الجزائريين بقيادة «ابن باديس» نجاحا ملحوظا في تجريد هؤلاء المشعوذين من صلاحيات التحدث باسم الإسلام، وأخذ المجتمع الجزائري ينظر إليهم كمارقين باعوا دينهم وكرامتهم للمستعمر،حتى لم يعودوا هم ومن تبعهم على درب الاندماج يستحقون شرف الانتساب للإسلام، بل امتنع الناس عن دفن هؤلاء بمقابر المسلمين. وكان انحسار نفوذ هؤلاء المشعوذين يعني زيادة القوة والأنصار لجمعية العلماء، وتصحيح صورة الإسلام، واتخاذه أداة في مناوأة الاستعمار. فقد رأى «ابن باديس» أن العودة إلىمنابع الإسلام النقية الأولي وأصوله الجوهرية السبيل الأوحد لبعث الجزائر المناضلة، والطريق الذي لا طريق سواه كي يتحول الإسلام إلي سلاح في معركتها ضد المستعمر، بعدما حوله

المتصوفة إلى وسيلة لتبرير الخضوع للفرنسيين.

الجهاد بالقلم:

وكانت الصحافة أحد الجوانب الهامة من كفاح «ابن باديس»، فقد أنشأ صحيفتا المنتقد والشهاب ليؤديا دور الإرشاد والتوجيه والتحفيز والدعوة إلى التحرير، وجعل «ابن باديس» من الصحيفتين ميدان رحا لفحص وإبادة ادعاء الفرنسيين أن بلدهم تحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية في العالم. فأخذ يبين كيف تشن بلد الحرية والحضارة حرب الإبادة والاستئصال دون رحمة أو هوادة، وراح يكشف فظائع فرنسا في الجزائر. فيعلن كيف هاجمت القوات الفرنسية قبيلة «العوفية» ليلة ١٦/ ٤/ ١٨٣٢م، وهي نائمة في الخيام قبل الفجر، فذبحت هؤلاء العزل الآمنين ذبحا لا رحمة فيه، كما بين كيف كانت تساق حيوانات الفلاحين غصبا للبيع، وكان من بين الغنائم أساور نساء في الأيدي المقطوعة وأقراط فتيات لا تزال تلتصق بها قطع من الآذان.

نذالة الطغيان:

ومن الفظائع التي بينها «ابن باديس» أيضا في الصحف ما فعله جنود الاحتلال، حين أوقدوا النار ليلة كاملة أمام كهف يضم قبيلة بأجمعها، وما جاء الصباح ودخل الجند الكهف حتى وجدوا نحو ثمانمائة من جثث الضحايا البريئة من نساء وشيوخ وأطفال تحت أقدام الثيران والحيوانات التي انطلقت تتلمس النجاة من النار فداست كل عزيز ثم لقيت حتفها مع الناس.

ومن أفظع ما شوهد داخل الكهف، رجل أسلم الروح وهو ممسك بقرني أحد الثيران وخلفه امرأته وابنه الصبي، كأنه كان يدفع عنهما الثور الهائج من لفح اللهيب.

هذه الفظائع وأمثالها كانت أدلة «ابن باديس»، وحججه القاطعة على نذالة الطغيان الفرنسي، وهي التي أوحت له العزم في جهاده المستشهد حتى تنوعت آفاقه

الإصلاحية، واستطاع أن يعصف بأسطورة فرنسة الجزائر وتنصير المسلمين.

هذا الجهاد المتواصل بكل وسيلة جعله يتعرض للاغتيال في سنة ١٣٤٥هـ، ١٩٢٧م، وهو عائد إلى بيته في منتصف الليل بعد فراغه من إلقاء درسه في تفسير القرآن، لكن المحاولة فشلت، وألقي القبض على الجاني بواسطة أعوان «ابن باديس»، ولكنه عفا عنه، واستمر في جهاده لا يخاف في الله لومة لائم.

موقف ثوري:

كان «الشيخ عبدالحميد ابن باديس» صاحب موقف ثوري ضد الاستعمار الفرنسي، وقد تصاعد هذا الموقف الثوري بتصاعد قوة التنظيم الذي أسسه وقاده ورعاه، كما كان يدعو الجميع أن يسلكوا مثله هذا المسلك الثوري، وأن ينفخوا مثله روح الاجتماع الثوري في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد.

وسافر إلى «باريس» في ١٨ يونيو ١٩٣٦م وفد يمثل المؤتمر الإسلامي الجزائري، ولقيهم دلاييه وزير شؤون الجزائر في الحكومة الفرنسية، الذي هدد أعضاء الوفد بقوله: إن لدى فرنسا مدافع طويلة، فتصدى له «ابن باديس» قائلا: إن لدينا مدافع أطول، فتساءل دلاييه عن أمر هذه المدافع الأطول التي تحدث عنها الشيخ، فأجابه الرجل: إنها مدافع الله.

وشهدت سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م تزايد حرارة المواقف الثورية «لابن باديس»، فعندما أراد الفرنسيون الاحتفال بمرور قرن على احتلالهم لمدينة قسنطينة طالب «ابن باديس» الأهالي بمقاطعة الاحتفال فاستجاب له الشعب،وفشلت احتفالات الفرنسيين. ووجه إلى الأمة نداء يدعوها فيه إلى المقاومة حتى تسلم السلطات الفرنسية بالمساواة بين الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين في المجالس النيابية بالجزائر.

وعندما اقترب خطر الحرب العالمية الثانية من فرنسا، سعت الحكومة الفرنسية

إلى الحصول على مساندة جبهة علماء الجزائر، فهدد «ابن باديس» بتقديم استقالته إذا ما ساندت الجبهة فرنسا في حربها. وقال: «إنني لن أوقع هذه البرقية حتى لو قطعوا عنقي، وكان ثلاثة من أعضاء الجبهة قد اقترحوا إرسال برقية تأييد للحكومة الفرنسية.

عيد النهضة:

وأطلق «ابن باديس» على يوم افتتاح جمعية العلماء لمؤسسة دار الحديث التعليمية بتلمسان يوم عيد النهضة الجزائرية تعبيرا عن اقتراب الثمرة التي عمل لها من النضج والاستواء. وفي خطابه في ذلك اليوم ٢٧ سبتمبر ١٩٣٧م، حدد «ابن باديس» أعداء هذه النهضة وهم: الظلمة المستعمرون والدجالون الطرقية والخونة دعاة الاندماج، وأعلن أن هذه النهضة قد بلغت الحد الذي يخشاها فيه هؤلاء الأعداء.

وفي سنة ١٩٣٨م أعلن الشيخ المجاهد أن الحركة التي صنعها وقادها قد انتقلت إلى طور جديد فقد أصبحت تخيف بعد أن كانت تخاف. ومنذ هذا التاريخ وهذه الكتيبة المؤمنة تقدم العديد من النجوم المتألقة وترتفع بها إلى سماء النضال.

وإذا كان المصلح العظيم قد انتقل إلى جوار ربه في سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، فإنه قد خلف من بعده أساتذة يحملون الراية ويوالون الجهاد، وفي مقدمتهم رفيق كفاحه «الشيخ محمد البشير الإبراهيمي»، كما ترك من تلاميذه الشبان من صاروا قادة الثورة الجزائرية التي انطلقت في الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤م، ٥ ربيع الأول ١٣٧٤هـ، التي حققت حلم ابن باديس في الاستقلال عام ١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م، بعد قرن وثلث قرن من الاحتلال الفرنسي الوحشي ومحاولات الإبادة لهذا الشعب العربي المسلم الصابر المناضل العنيد، الذي دفع ثمن حريته مليون شهيد من خيرة شبابه(*).

(*) محمود قاسم: «عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.